ثقافة عمر

إذا تكلَّمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا أن نقول انه كان رجلًا وافر الحظ من ثقافة زمانه، وإنه كان أديبًا مؤرخًا فقيهًا، مشاركًا في سائر الفنون، مدربًا على اللياقة البدنية، خطيبًا مطبوعًا على الكلام، فليس أرجح من نصيبه في ثقافة زمانه نصيب.

ظل في إسلامه كما كان في جاهليته عظيم الشَّغف بالشعر والأمثال والطرف الأدبية، بل ظلَّ كذلك بعد قيامِهِ بالخلافة واشتغاله بجلائلها ودقائقها التي لا تدع له من وقته فراغًا لغيرها، فكان يروي الشعر ويتمثَّل به ويحثُّ على روايته ويعتدها من تمام المروءة والمعرفة كما قال لابنه عبد الرحمن: (يا بنيَّ انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه. ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤدِّ حقًّا ولم يقترف أدبًا). . وقال للمسلمين عامة: (اروا الأشعار فإنها تدل على الأخلاق).

ونظر إلى فائدته العملية كما نظر إلى متعته الأدبية، فقال فيه إنه جذل من كلام العرب يسكن به الغيظ وتطفأ به الثائرة ويبلغ به القوم في ناديهم ويعطى به السائل.

وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التي لا يبالي الموت لو حرم نصيبه منها، فكان يقول: (لولا أن أسير في سبيل الله وأضع جبهتي لله، وأجالس أقوامًا ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب الثمر لم أبالِ أن أكون قد مِتُّ).

وإذا اقترنت العبادة باستطراف الحديث المهذَّب عند عمر فذلك غاية ما يبلغه الأدب عنده من ثناء وتقريظ.

وقد كان إعظام الرجل في عينيه بمقدار حذقه للحديث وقدرته على الإبانة والمنطق الحصيف. فنظر يومًا إلى هرم بن قطبة ملتفًا في بت بناحية المسجد وقد عرف تقديم العرب له في الحكم والعلم وهو من دمامة وضآلةٍ ومنظر زريٍّ، فأحبَّ أن يكشفه ويسبر حكمته، فسأله في علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل: أرأيت لو تنافرا إليك اليوم أيهما كنت تنفر ؟. . فأجابه الرجل: يا أمير المؤمنين!. . لو قلت فيهما كلمة واحدةً لأعدتها جذعة، أي لأعاد الحرب فتيَّةً كما كانت، فأثنى عليه وقال : لهذا العقل تحاكمت إليه العرب!. .

وجاء وفد فيه الأحنف فتركهم جميعًا واستفتَحَ ما عنده من الحديث فأعجبه وأعظم قدره وعقد له الرئاسة إلى أن مات.

وسرَّه أن عاد العرب إلى رواية الشعر بعد أن شغلهم عنه الجهاد في سبيل الدين، فكان يقول أن الشعر (كان علم قوم لم يكن لهم علم أصحُّ منه، فجاء الإسلام فتشاغلَتْ عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيَتْ عن روايته، فلمَّا كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنَّت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوانٍ مدوَّنٍ، ولا كتاب مكتوبٍ، فألفوا ذلك وقد هلَك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقله وذهب منهم أكثره).

ومن ناحية الأدب فيه، وناحية الدِّين معًا، حثَّه على تعلُّم العربية (لأنها تثبت العقل وتزيد في المروءة) وقد أوصى بوضع قواعد النحو لأنه قوام العربية. .

ولم يزل عمر الخليفة هو عمر الأديب طوال حياته، لم ينكر من الشعر إلا ما ينكره المسئول عن دين، ولم ينس قط أنه الأديب الحافظ الراوية إلا حيث ينبغي أن ينسى ذلك ليذكر أنه القاضي المتحرِّز الأمين.

فنهى عن التشبيب بالمحصنات كما نهى عن الهجاء، وجيء له بالحطيئة متهمًا بهجاء الزبرقان بن بدر حيث يقول فيه:

دع المكـارم لا ترحـل لبغيتهـا

واقعـد فإنـك أنـت الطـاعم الكـاسي[1]

فنسى أنه الأديب الراوية ولم يذكر إلا أنه القاضي الذي يدرأ الحدود بالشبهات ولا يحكم بما يعلم دون ما يعلمه أهل الصناعة، وقال للزبرقان: ما أسمع هجاء ولكنَّها معاتبة. ثمَّ سأل حسان بن ثابت فقضى بأنه هجاه وأفحشَ في هجائه، فحبسه وأنذره ونهاه أن يعود إلى مثلها، فانتهى طوال حياة عمر، ثمَّ عاد إلى الهجاء بعد وفاته.

واستعداه تميم بن مقبل على النجاشي[2] لأنه قال في قومه بني العجلان:

---

(١) البيت من البسيط.

(٢) النجاشي الحارثي ٤٩ هـ / ٦٦٩ م قيس بن عمرو بن مالك بن الحارث بن كعب بن كهلان. شاعر هجاء مخضرم اشتهر في الجاهلية والإسلام وأصله من نجران باليمن انتقل إلى الحجاز واستقر في الكوفة وهجا أهلها.وهدده عمر بن الخطاب بقطع لسانه وضربه علي على السكر في رمضان.

إذا الله عادى أهل لؤم وذلةٍ

فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل[١]

فذكر عمر قضاءه ولم يذكر روايته للشعر، وقال على سنة القضاة يدفع الحدود بالشبهات: إنه دعاء والله لا يعادي مسلمًا.

قال تميم : فإنه يقول عنَّا:

قبيلته لا يغدرون بذمة

ولا يظلمون الناس حبة خردلِ[٢]

فقال عمر: ليتني من هؤلاء.

قال تميم: وإنه يقول:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم

وتأكل من عوف بن كعب بن نهشل[٣]

فقال عمر: كفى ضياعًا بمن تأكل الكلاب لحمه.

قال تميم: وإنه يقول:

ولا يردون الماء إلا عشيةً

إذا صدر الورَّاد عن كل منهل

فقال عمر : ذلك أصفى للماء وأقلّ للسكاك (أي الزحام).

---

(١) البيت من الطويل.

(٢) البيت من الطويل.

(٣) البيت في العمدة. وهو من الطويل.

obeikandl.com

قال تميم: وإنه يقول:

ومـــا ســـمي العجـــلان إلا لقـــولهم

خـذ القعـب واحلـب أيهـا العبـد واعجـلِ

فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم أنفعهم لأهله.

قال تميم:

فسله عن قوله:

أولئـــــك أولاد الهجـــــين وأسرة

اللئـــيم ورهـــط العـــاجز المتـــذلل

فقال عمر: أمَّا هذا فلا أعذرُكَ عليه، وحبس الشاعر وضربه وأنذره لئن عاد ليضاعفن له العقاب. . .

وقد تجوزنا فقلنا أنَّ عمر نسي علمه بالشعر ليذكر إبراء الذمة في القضاء. وقد حاول ذلك جهده فأفلح لو يفلح أديب في نسيان أدبه. ولكنه مطلب ما استطيع قط ولن يستطاع. فكان عمر في تخريجه للكلام وعلمه بما تنصرف اليه معانيه أخبر بالشعر من قاض لا يفقه منه إلا ظاهر لفظه ومعناه.

ومن المشهور عن عمر انه كان عليمًا بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر أنسابها كعلمه بالمتخير من شعرها ولسائر أمثالها.

obeikandl.com

جنح إلى ذلك بطبعه ونقله عن أبيه، وكثيرًا ما كان يقول كما جاء في البيان والتبيين : سمعت ذلك عن الخطاب ولم أسمع ذلك عن الخطاب.

ومن وصاياه: (تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أهله قال من قرية كذا). ومنها: (عليكم بطرائف الأخبار، فإنها من علم الملوك والسادة، وبها تنال المنزلة والخطوة عندهم).

****

وفقه عمر بالشريعة التي كان مسئولًا عن نفاذها مشهور بين الفقهاء كاشتهار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه. فكان عبد الله بن مسعود يقول: (كان عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله) وكان إذا اختلف أحد في قراءة الآيات قال له: اقرأها كما قرأها عمر، وأطنب فقال: (لو أن علم عمر بن الخطاب في كفة ميزان، ووضع علم الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم، ولقد كانوا يروون انه ذهب بتسعة أعشار العلم). . وقال ابن سيرين: (إذا رأيت الرجل يزعم أنَّه أعلم من عمر فشكَّ في دينه) وكلُّ ما فسر به آي القرآن في معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح في وزن العقل والدين، وكلُّ ما استخرجهُ من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح.

ونصائحه للعلماء والمتعلِّمين نصائح عالم يعرف ما هو العلم وماذا يجمل بالعلماء في طلبه، فكان يقول: (تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلَّمون منه وتواضعوا لمن تعلِّمون، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلِكُم) وكان يوصي

طلابه (أن يكونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم، ويسألوا الله رزق يوم بيوم، ولا يضيرهم ألا يكثر لهم) ولا يزال يذكرهم أن التفقُّه مقدم على السيادة (فتفقهوا قبل أن تسودوا).

ولم يقصر نصائحه على علم الدين ولا على علم الأدب واللغة وحده، بل تناول كل ما عرف من معارف زمانه فقال: (تعلموا من النجوم ما يدلُّكم على سبيلكم في البر والبحر ولا تزيدوا عليه).

ولا شكَّ أن نصائحه العملية في طلب العلم كانت أغلب من نصائحه النظرية فيه شأنه في ذلك شأن رجل الدولة الذي يعلِّم الناس ما ينفعهم ويصلح معاشهم ويهذب أخلاقهم. . ولكننا مخطئون إن فهمنا من هذا القول الذي رويناه في علم النجوم أنه كان يكره الزيادة الحديثة فيه كما عرفناها نحن في أيامنا. فإنما الزيادة التي كرهها هي تلك الزيادة التي كانت على عهده تخوض في التنجيم وتربط أقدار الناس بالكواكب وتجعل منها أربابًا تعبد وأرصادًا تؤتمنُ على أسرار الغيب. وذلك ما ننهى عنه الآن ونعد النهيَ عنه من تحقيق العلم الصحيح. .

ولم يفته الحرص على المعرفة التي تخترع منها منافع للناس في أمر المعاش. فطلب إلى أبى لؤلؤة غلام المغيرة أن ينجز ما ادعاه من اختراع طاحون تدار بالهواء، وهو علم الصناعات كما انتهى إليه في عصره، لايضيره أنَّه قسط ضئيل، بل حرصه عليه مع ضآلته دليل على ما يلقاه منه تشجيع الصناعة يوم يراها جليلة كبيرة الآثار.

على أنَّ زبدة الثقافة كلها في أقطاب الحكم وعظماء الأعمال إنَّما تتلخص في شيءٍ واحدٍ: هو الدراية بالناس ونفاذ البصر في شئون الدنيا

وصدق الخبرة بدخائل النفس البشرية، أو ما نسميه في أيامنا هذه بالرأي السليم والحكمة العملية، وهو مجال كان عمر بن الخطاب قليل النظراء فيه، وحفظت له كلمات في معانيه يندر مثيلها بين كلمات الحكماء.

فأيُّ كلمةٍ أدلُّ على النفس البشرية من قوله: (ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرَّينِ).

وأيُّ نفاذٍ في تركيب الطبائع أمضى من نفاذه إذ يقول: (ما وجد أحد في نفسه كبرًا إلا من مهانة يجدها في نفسه)؟. أليس هذا بعينه هو مركب النقص الذي يلهج به علم النفس الحديث ؟. .

وأي رأيٍ في تجربة الناس أصدق من رأيهِ حين يقول: (لا تعتمد على خلق رجل حتى تجربه عند الغضب) أو حين أثنى بعضهم على رجل أمامه فسأله : أصحبته في السفر ؟. . أعاملته؟. . فلما أجابه نفيًا قال: (فأنت القائل بما لم تعلم).

وأي فهم لمعنى الاستعداد للعمل أقرب من فهمه حين ينصح العاملين: (إذا توجه، أحدكم في الوجه ثلاث مرات فلم ير خيرًا فليدعه) !

كذلك سداد جوابه حين سئل فيمن يشتهي المعصية ولا يقترفها وفيمن ينتهي عنها وهو لا يشتهيها أيهما أفضل وأجزل مثوبة عند الله، فكتب في هذا فصل الخطاب إذ قال: (إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر كريم).

وكذلك وصيته بكتمان السر وتبيينه لحسن عقباه حين قال: (من كتم سرَّه كان الخيار بيده).

وكذلك وصيته في الحب والبغض حين قال: (لا يكن حبُّك كلفًا ولا بغضك تلفًا).

وكذلك مخافته محنَّة الفراغ على الناس أشد من مخافته محنة الخمر حين قال: (حذركم عاقبة الفراغ فانه أجمع لأبواب المكروه من السكر).

وكذلك وصاياه التي كانت تحفل بها كتبه إلى الولاة وخطبه في الصلوات والأعياد وكلها آيات من هذه الحكمة العملية التي هي خلاصة الثقافة المحدودة في أقطاب الحكم خاصة، وفى كل رجل يزاول شؤون الحياة على التعميم.

أما مشاركته في سائر الفنون والمعارف التب كانت ميسورة على عهده فمنها المستغرب عند من يتخيل صورة عمر من جملة أخباره، ولا يتقصى فيها إلى التفصيل.

فقليل من يتخيَّل أنَّ عمر كان يعرف (جغرافية) الشرق كأحسن ما يعرفها رجل في وطنه، ولكنه كان يعرفها حقًا عن سماع وعن رؤية وعن زكاته تعين السماع والرؤية. بل كان يفرض على الولاة أن يحيطوا بعلم ما يتولونه من البلاد ويعزل من يرى فيه تقصيرًا عن ذاك. فاستقدم عمار بن ياسر أمير الكوفة لما شكوه إليه وقالوا في شكواهم إياه: (إنه لا يدرى علام استعمل) وجعل يسأله عن المواقع والبلدان من بلاد

العرب والفرس حول الكوفة سؤال مطلع خبير، ثم عزله لتقصيره بعد اختباره. .

ومن الواجب أن نشكَّ في كلِّ خبر يوهم أن عمر كان يجهل معرفة من المعارف العملية التي يحتاج إليها في تدبير الدولة، فلا يعقل مثلًا أنه كان يجهل المعرفة العامة بالحساب وقد كان تاجرًا منذ نشأته في الجاهلية وكان يحضر الجيوش ويعرف ما هي الألوف وما هي عشرات الألوف، فإذا استفسر عن رقم فلم يكن إلا استفسار تجاهل واستعظام وليس بجهل وغرارةٍ كما جاء في أخبار الخراج من هجر والبحرين. .

قال أبو هريرة ما فحواه: قدمت من هجر والبحرين بخمسمائة ألف درهم. فأتيت عمر بن الخطاب ممسيًا أسلمه إيَّاه فسأل كم هو؟. . قلت خمسمائة ألف درهم؟. . قال: وتدرى كم خمسمائة ألف درهم ؟!. . قلت: نعم مائة ألف ومائة ألف خمس مرات. . قال: أنت ناعس، اذهب فبت الليلة حتى تصبح!. .

فكل شيءٍ يجوز أن يفهم من هذه القصة إلا أن عمر كان يجهل ذلك الرقم ولم يسمع بمثله قبل ذلك، وهو الذي شهد الدولة وحسابها من عهد أبى بكر وأحصى الجند والمال في عهده.. إنما هي غبطة واستعظام، وليس هو جهلًا بدلالة هذا الرقم في جملة الحساب. وإذا قلَّ من يتخيل علم عمر بالجغرافية والحساب فأقلُّ من أولئك من يتخيل له حظًا من السماع والغناء، ولكنه كان يسمع ويغنى في بعض الأحيان، ولا ينهى عن غناء إلا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات. جيءَ له برجل

يغني في الحج وقيل له: إنَّ هذا يغنِّي وهو محرم. فقال: دعوه فإن الغناء الرَّاكب.

وروى نائل مولى عثمان بن عفان انه خرج في ركب مع عمر وعثمان وابن عباس، وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رباح بن المعترف الفهري الذي كان يحدو ويجيد الحداء والغناء. فسألوه ذات ليلة أن يحدو لهم فأبى وقال مستنكرًا: مع عمر!. . قالوا: احدُ فإن نهاك فانته. فحدَا، حتى إذا كان السحر قال له عمر: كفَّ فإن هذه ساعة ذكر. ثمَّ كانت الليلة الثانية فسألوه أن ينصب لهم نصب العرب. فأبى وأعاد استنكاره بالأمس قائلا: مع عمر؟. . قالوا له كما قالوا بالأمس انصب فإن نهاك فانته. فنصب لهم نصب العرب حتى إذا كان السحر قال له عمر: كف فإن هذه ساعة ذكر. ثمَّ كانت الليلة الثالثة فسألوه أن يغنيهم غناء القيانِ. فما هو إلا أن رفع عقيرته بغنائهنَّ حتى نهاه وقال له: كفَّ فإن هذا ينفر القلوب.

وكان يخرج للحجِّ ومعه من يحسن الغناء فيقترح عليه أن يغنِّي شعرًا ويؤثر أن يكون ذلك من شعره. .

خرج مرَّةً للحج ومعه خوات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار، وقال عمر : بل دعوا أبا عبدالله فليغن من بنيات فؤاده. فما زال يغنيهم حتى كان السحر فهتف به عمر : ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا.

وجاءه قوم فذكروا أن إمامهم يصلى بهم العصر ثم يتغنى بأبيات من الشعر، فقام معهم إليه واستخرجه من منزله وسأله فيما بلغه عنه، واستنشده الأبيات التي يغنيها.

فأنشده :

وفـــــؤادي كلَّـــــما نبَّهتـــــــه
عـــادَ في اللـــذَّاتِ يبغـــي تعبـــي

لا أراهُ الــــــدَّهرَ إلَّا لاهِيًـــــا
في تمادِيـــــهِ فقـــد بـــرَّح بِـــي

يـا قـرين الـسوء مـا هـذا الـصبا
فنِـــي العمـــر كـــذا باللعـــب

وشـــباب بـــان منِّـــي فمـــضى
قبـــل أن أقـــضيَ منـــه أربي

نفـــسُ لا كنـــت ولا كـــان الهـــوى
اتقـــي المـــولى وخـــافي وارهبـــي[1]

فأعاد البيت الأخير، وقال لمن شكوا إليه: من كان منكم مغنيًا فليغنِّ هكذا. .

وكان مرة في سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد:

---

(١) الأبيات من الرمل.

obeikandl.com

ومـا حملـت مـن ناقـة فـوق رحلهـا

أبـــرَّ وأوفى ذمَّـــةً مـــن محمَّـــدِ(١)

فاجتمع الركب إليه، فقرأ فتفرقوا. فعل ذلك وفعلوه مرات، فصاح بهم: (يا بني المتكاء!. . إذا أخذت في مزامير الشيطان اجتمعتم، وإذا أخذت في كتاب الله تفرَّقتم؟. .) لا يلومهم على الغناء وسماعه، وإنَّما يلومهم أن يؤثره على سماع القرآن مرات.

ولا شكَّ أن الشغف بالشعر الجزل والحديث الرائق والصوت الحسن لا يجتمع في نفس إلا اجتمع معه ذوق للجمال وسرور بكل حسن جميل. ولكن أين يقع هذا من صرامة عمر وبأسه وشدة حجره على زينة الحسان؟. . فقد دخل في رَوْع أناس أنها جميعًا من نقائض حب الجمال، وقد سمعنا هذا فعلًا من أدباء يجلون عمر ولا يحسبون ذوق الجمال من مأثور حسناته، لأنه كان شديدًا في الحجاب وكان ينفي الفتيان الحسان كما صنع بنصر بن حجاج ومعقل بن سنان، وكان يقول: (استعيذوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حَذَر).

وعندنا نحن أن هذا جميعه ينمُّ على الإحساس بخطر الجمال وطغيان فتنته، ولا ينم على غفلة عنه وقلة مبالاة بأثره. وما نخال أحدًا من المترخِّصين في الحجاب كان يؤمن بسلطان الجمال أبلغ من إيمانِ عمر بسلطانه، أو كان يعرف حق المرأة في الشوق إليه كما عرفه وأمر برعايته،

---

(١) البيت لأنس بن زنيم الطائي وهو من الطويل.

فانه كان ينكر على الآباء أن يكرهن فتياتهم على قباح الوجوه ويوصيهم: (ألا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فإنهنَّ يحببن ما تحبُّون).

وجاءت له امرأة بزوج أشعث أغبر تسأله الخلاص منه، فأمر به أن يحم وأن تقلم أظفاره ويؤخذ من شعره، ثم قال له ولمن في مجلسه: (هكذا فاصنعوا لهن فو الله إنهنَّ ليحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزينَّ لكم).

فكلُّ ما روي عن عمر من الشدَّةِ والرفق في معرض الجمال فهو دليل على الإحساس به، وإكبار خطرهِ، وليس بدلِيل الغفلة عنه واستصغار أثره، وربما كانت الشدة والحجر أدل على ذلك من الرفق والمحاسنة.

****

ومن الآداب العامة التي لها حظ من ذوق الجمال في معارض السياسة أدب الذكريات الذي لا يستغني عنه ولاة الأمر الموكلون بأحياء معالم الدول والاحتفال بمراسمها وأعيادها.

ففي هذا الأدب كان لعمر النصيب الذي يغنيه. فهو الذي اختار أو وافق على اختيار يوم الهجرة بداية للتاريخ الإسلامي. وإنه لأصلح يوم يؤرخ به الإسلام. لأن العقائد كما قلنا في (عبقرية محمد): (تقاس الشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب، وكلُّ إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة. أما النفس التي تعتقد حقًّا ويتجلَّى فيها انتصار العقيدة حقًّا فهي النفس التي تؤمن في الشدَّة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء).

وكلَّما اقترح على عمر اقتراح فيه نفحة من ذوق الذكرى، كان مجيبًا له سريع الإصغاء إليه. فكان يحترم وفاء بلال وإقلاعه عن الآذان بعد وفاة النبيِّ علية السلام. ولكنه دعاه إلى الآذان تلبية لاقتراح الجلة من الصحابة في يوم وداع دمشق بعد الفتح المبين. فبينما المسلمون يشهدون الصلاة الجامعة إذا بالصوت الذي انقطع بعد النبيِّ يرتفع رويدًا رويدًا في الفضاء ويسري رويدًا رويدًا من الأسماع إلى الصدور. والتفتوا وكأنهم يسألون: ماذا ؟. . هل عاد محمَّد إلى الأرض؟. . إن لم يكن قد عاد فقد عاد الحنين إليه أقوى ما ينبعث من صوت إنسان إلى صدر إنسان. . فذابت قلوب لا يذيبها الهول، وبكى أشيب أولئك الأبطال وأصبرهم على حرِّ القتال.

****

وإذا كان عمر المعجب بالجمال مستكنًا وراء ستار يحوجنا إلى النظر من ورائه فعمر الرياضي المشغول بالرياضة البدنية ظاهر لنا بعمله وقوله، وبسيرته في الجاهلية، وسيرته بعد الإسلام، وسيرته بعد الخلافة إلى أن فارق الحياة. .

فكان يصارع في المواسم ويسابق الخيل، وكان ينوط مجد العرب بالرياضة والفروسية ويكتب إلى الأمصار أن (علموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن الشعر) ولا يفتأ يذكرهم أنه (لن تخور قوى ما دام صاحبها ينزع وينزو) أي يرمى بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب.

****

أمَّا الخطابة فقد كانت فيه من صفات البنية ولم تكن من صفات الذهن وكفى، فكان له فم يمتلئ بالكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول، ولو حظ عليه انه كان ينطق ببعض الحروف –كالصاد– من كلا شدقيه وهى تنطق في الأغلب من شدق واحد. وكان جهوريَّ الصوت واضح النطق سليم الشفتين في إخراج الحروف، وكتابته كلها كأنها خطب مرتجلات تقرأها فكأنك تصغي إلى خطيب لا تفقد منه إلا الصوت المسموع.

ولانطباعه على الكلام لا تصنع فيه كان يستسهل كل كلام يوافق طبعه ولا يستصعب من الخطب إلا الذي يغيِّر من نظرته إلى الناس ويلجئه إلى المداراة والباطل. فكان يقول: (ما يتصعدني كلام كما تصعدني خطب النكاح). والتمس ابن المقفع علَّةَ ذلك فقال: (ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه، ونظر الحداق من قرب أجواف الحداق، ولأنه إذا كان جالسًا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء، وإذا علا المنبر صاروا سوقه ورعية) والتمس الجاحظ علة ذلك فروى عن أناس أنهم رجعوا باستصعاب عمر لخطب النكاح إلى (أن الخطيب لا يجد بدًّا من تزكية الخاطب، فلعلَّه كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورًا وغرَّ القوم من صاحبه) وكلا القولين جائز في بيان وجه المخالفة بين طبع عمر والتكلم في محافل النكاح. فهو مطبوع على أن يتكلم إلى الناس كلام رجل يقود الرجال، ومطبوع على الصدق الذي تثقل على صاحبه المداهنة، وهى مما لا غنًى عنه في هذا المقام، ولو كان الخاطب من الأكفاء.

وقد اختلفوا في نظمِه الشعر فزعم الشعبي أنه كان شاعرًا ورويت له أشعار لا تشبهه ولا ترضيه، ونفى هو نظمه للشعر حين قال: (لو كنت أقول الشعر لرثيت أخي زيدًا).

ولا طائل في هذا الخلاف، لأنه لن ينتهي إلى رأيٍ قاطع يسكت عليه، ولكنَّما المهمُّ في هذا الصَّدد أنه كان مطبوعًا على التعبير وله عبقرية فيه، أو أن تعبيره كان خاصًّا به لا يشبهه تعبير سواه، فهو تعبير عُمَرِيّ بمفرداته وتركيبه لا يلتبس بتعبير أحد من أهل عصره حتى ليسهل تمييز كلامه من كل كلام ويصعب تزوير القول عليه ولو أحكمت المحاكاة.

فمن خصوصياته في التعبير أنه كان يقول: (لولا الخليفي لأذنت) وهو يعنى الخلافة ولا يقصد الإغراب.

ومنها وهو ينقل خبر إسلامه إلى خاله: (وجئت إلى خالي فأعلمته فدخل إلى البيت وأجاف الباب) أي أوصده!

ومنها وهو يصف ما وقع في نفسه من الآية التي تلاها أبو بكر رضي الله عنه حين أنكر موت النبيِّ فقالَ: (والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلُّني رجلاي) يعني أنَّه عجز عن القيام.

ومنها في الكتابه والقراءة ينهى عن العجلة فيها : (شرُّ الكتابة المشقُّ وشر القراءة الهذرمة، وأجود الخط أبينه).

ومنها وهو يذكر امرأة كانت تسقي الناس يوم أحد: (كانت تزفر للناس القِرَب) أي تحملها.

ومنها في المشورة (الرأي الفرد كالخيط السَّحيل، والرأيان كالخيطين المبرمين، والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض).

ومنها حين كتب إلى أبي عبيدة بعد ولايته الخلافة : (. . ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس).

ومنها حين شكا إليه الشَّاكي هجاء الشاعر الذي قال فيه:

ولا يـــــردون المـــــاء إلا عـــــشيةً

إذا صـــدر الـــورَّادُ عـــن كـــل مـــوردِ

فقال : ذلك أنفى (للساك) أي الزحام.

ومنها في سماحه بالبكاء (ما لم يكن نقع أو لقلقة) أي ما لم يثر التراب ويفرط في العويل. .

ومنها وقد حار بأهل الكوفة: (أعضل بي أهل الكوفة ما يرضون بأمير ولا يرضاهم أمير). ومنها: (إنَّ قريشًا تريد أن تكون مغويات لمال الله) أي: مصائد تحتجنه لها دون عباد الله.

ومنها : (تمعددوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزوًا)، أي: تزيُّوا بزيِّ العرب من معد بن عدنان.

ومنها: (فرِّقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين، ولا تلثوا بدار معجزة) أي: تقيموا.

ومنها : (فمن بايع رجلًا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي بايعه تغرُّه أن يقتلا) أي: أن يتعرضا للقتل.

obeikandl.com

ومنها: (. .إنَّ ا لاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في الضلالة، فافهموا ما توعظون به، فإنَّ الحريب من حرب دينه) يريد المسلوب.

ومنها وقد سمع بامرأة سافرة يبرزها زوجها فقال: (هذهِ الخارجة وهذا المرسلها لو قدرت عليهما لشترت بهما) أي: لأغلظت القول لهما.

ومنها لما سألوه لم حصبت المسجد فقال: (هو أغفر للنخامَةِ وألين في الموطن) أي: أستر للبصاق.

ومنها: (ثلاث من الفواقر: جار مقامة إن رأى حسنةً سترها، وإن رأى سيئةً أذاعها، وامرأة إن دخلت عليها لسنتك وإن غبت عنها لم تأمنَها، وسلطان إن أحسنت لم يحمدك، وإن أسأت قتلكَ) ولسنتك: أي تناولتك بلسانها. .

ومنها وهو يخاطب سعد بن عبادة يوم السقيفة: (لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك) أي: تسقط. ومنها وهو يتكلم عن امرئ القيس: (خسف لهم عين الشعر فافترَّ عن معاني عور أصح بصر) أي: استنبط عين الشعر وشقَّ طريق المعاني وأتى بالشوارد الحسان.

ومنها وهو يتكلم عن نصيب المسلمين في الغنائم وبيت المال: (والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه) أي قبل أن يخجل ويحمر وجهه في طلبه.

ومنها قوله لأعرابيٍّ استفتاه في صيد ظبي وهو محرم: (أتقتل في الحرم وتغمص الفتيا!) أي تعيبها ولا ترضاها!

****

وأشباه هذا كثير لا تخلو منه خطبة أو حديث أو كتاب، تعمدنا أن نكثر شواهده لنرى أنه ليس بالمصادقة وليس بالتكرير لنمط واحد من العبارات. . .

ويلحق بهذا تسمية مواليه بين أسبق وأسلم ويرفأ وفرقد وذكوان وفروخ وما شابه هذه الأسماء. وهى تسمية مفردة تكاد تقتصر عليه، وإنَّما هي الطبيعة العمرية تمثَّلت في صيغةِ الكلام وفى اختيار الأعلام. فلا تستطيع أن تسميها إغرابًا أو عسلطة أو تعملًا بنحو من أنحائه، إذ ليس وراءها قصد متفق في جميع هذهِ الصِّيغ، وأبين ما يبين فيها أنها من عفو البداهة هنا وهناك، وأنها تترجمُ عن الطبيعة العمرية أصدق ترجمة وأشبهها بصاحبها، فهي قويَّة خشنة مستقلَّة جادَّة خالية من الزخرف. وهكذا كان المتكلِّم عمر وهكذا كان كلامه الذي ينطبع عليه حين يكون منطبعًا على التعبير، فلو أنَّ كلمات تتمثَّل رجلًا لتراءَى لنا من مثال هذه الكلمات شخص عمر في خُلقه وخَلقه كما كان.

****

ومحصِّل هذه الأخبار جميعًا أن عمر كان من نخبة المثقفين في العربية، وكان وافر السهم في ثقافة قومه وعصره. وكان الجانب العملي من ثقافته أغلب وأظهر من جوانبها النظرية كما هو المعهود في سياسة الأمم وعواهل الدول، وإن كان لا يمنع أنه اشتقاق إلى نفائس الشعر وأطايب الأدب لما يجده فيها من راحة النفس ومتعة الخاطر.

ويستطرد بنا الكلام على ثقافته العربية إلى الكلام على موقفه من الثقافات الأخرى في زمانه، وعلى حقيقة الرواية التي شاعت وتواترت

عن موقفه من مكتبة الإسكندرية التي قيل إنَّه أمر بإحراقها. فهل هو الآمر بإحراقها كما في تلك الرواية؟. . هو الآمر بذلك فما دلالته على تفكيره ؟. . وما وجه التبعة فيه؟. .

فحوى تلك الرواية أن عمر وبن العاص رفع إليه خبر المكتبة الكبرى في الإسكندرية، فجاءه الجواب منه بما نصُّه: (أما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنًى: وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه، فتقدَّم بإعدامها) قال مفصل هذهِ الرواية: فوزعت الكتب على أربعة آلاف حمام بالمدينة ومضت ستة أشهر قبل أن تستنفذ لكثرتها !. .

وآخر شيءٍ أن يلاحظ في مسألة المكتبة هذه أن الذين أدحضوها وأبرأوا عمر من تبعتها كان معظمهم من مؤرخي الأوربيين الذين لا يتهمون بالتشيع للمسلمين، وكانوا جميعا من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم في هذا الموضوع.

فالمؤرخ الانجليزي الكبير إدوارد صاحب كتاب (الدولة الرومانية في انحدارها وسقوطها) يسرد الحكاية ويعقب عليها قائلا: (أما أنا من جانبي فإنَّني شديد الميل إلى إنكار الحادثة وتتبعها على السواء لأنَّ الحادثة لعجيبة في الحق كما يقول مؤرخها إذ يسألنا هو أن نسمع ما جري ونعجب. . وهذا الكلام الذي يقصده أجنبي غريب يكتب علي تخوم ميديه بعد ستمائة سنة ويرجع عليه ولا شكَّ سكوت اثنين من المؤرخين كلاهما مسيحي وكلاهما مصري وأقدمهما البطريق يوتيخيوس الذي توسع في الكتابةِ عن فتح الإسكندرية وأنا القضاء

الصارم الذي نسب إلى عمر لبغيض إلى أصحاب الفهم الصحيح المستقيم من فقهاء المسلمين الذين يفتون بتحريم إحراق الكتب الدينية التي تغنم من اليهود والمسيحيين في الحرب وما كان من الكتب دنيويًّا ظنينًا سواء ألفه المؤرِّخون أو الشعراء أو الأطبَّاء أو الفلاسفة فحكمهم فيه أن يستخدِمَ على الوجه المشروح لمنفعة المؤمنين.

وقد تُعزَى إلى متقدّمي الخلفاء بعد محمَّد غيره أضرى من ذلك بالهدم والإبادة ولكن لو صحَّ هذا لوجب أن تنفذ الأوراق سريعًا لقلة المادة المحترقة. . فلا نرجع إلى نكبة المكتبة في الحريق الذي أصابها على غير قصد بيدي قصير وهو يدافع عن نفسه ولا إلى تعصب المسيحيين الأوائل الذين كانوا يدبرون الوسائل تدبيرًا لتعفية الآثار المتخلفَّة من أيام عبادة الأصنام ولكننا ننحدر شيئا فشيئا من عصر أنتونين إلى عصر ثيوديسيوس فنعلم من سلسلة الأنباء المعاصرة أن القصر الملكي وهيكل سرابيس لم تبق فيها الأسفار التي جمعها البطالسة وبلغت في إحدى الروايات أربعة آلاف وفي رواية أخري سبعة آلاف ولا يبعد أن تحفل الكنيسة ومعهد البطارقة بذخيرةٍ من الأوراق والأضابير فإن كانت هذه هي الورقة الذي أفنته الحمامات بما كان فيها من جدل بين القائلين بتعديد الطبيعة المسيحية والقائلين بتوحيدها فقد يرى الفيلسوف وعلى فمه ابتسامه أنها كانت في الحمامات أنفع لبني الإنسان. .)

والدكتور الفرد لمصر والإسكندرية يلخص الحكاية وينقضها لأن حنا فلبيوتوس الذي قيل أنه خاطب عمرو بن العاص في أمر المكتبة لم يكن حيًّا في أيام فتح العرب لمصر. . . ثمَّ ينقضها لأسباب شتى منها أن

كثير من كتب القرن السابع كانت من الرق وهو لا يصلح للوقود. وإنها لو قضي الخليفة بإحراقها لأحرقت في مكانها ولم يتجشَّموا نقلها إلى الحمامات مع فيه من التعب ومع إمكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بأبخس الأثمان وأننا لو صرفنا النظر عن الكتب المخطوطة على الرق لما يكفي الباقي من ذخائر المكتبة لوقود أربعة آلاف حمام مائة وثمانين يومًا وهذا عدا الشك الذي يعتور القصة من تأخير كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الإسكندرية ثم كتابتها بعد ذلك خلوا من المصادر والإسناد بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة في السنة الثامنة والأربعين للميلاد وفيما تلا ذلك من الفتن والقلاقل بين طوائف المسحيين.

والمستشرق كازانوفا يسمِّي الحكاية أسطورَةً ويقولُ أنها نشأت بعد تاريخ الحادثة بستة قرون؛ وينقضها لمثل الأسباب التي لخَّصناها من كتاب بتلر ثمَّ يقول: (وهناك اعتراض اخطر مما تقدم وهو أن ما ذكر عن يحي النحوي منقول عن كتاب الفهرست لابن النديم في أواخر القرن العاشر وفيه أن يحيي هذا عاش حتى فتحت مصر وكان مقربا من عمرو ولم يذكر شيئا عن مكتبة الإسكندرية فحادثة المكتبة إذن من أوهام ابن القفطي أخذها عن خرافة كانت شائعة في عصره.

ثمَّ يمضي في تفنيدِهِ فيقول: (وقد سال ابن خلدون عن مخلفات الفرس والأشوريين والبابليين والقبط التي حرقها عمر عند فتح العرب وقال ابن خلدون في كلام آخر: أن العرب لما فتحوا بلاد الفرس سال سعد بن أبي وقاص عمر عمَّا يأمر به في شأن الكتب بها فأمره بإلقائها في

اليم فانتقلت القصة إلى الإسكندرية مع الزمن وفعل الخيال فعله في تحريفها.

(وقد وقع تحريف هذه الخرافة في بعض دوائر المعارف حيث نقل عن سبر نجل أن المكتبة الإسكندرية حرقها العرب عند فتح مصر وأن الخليفة المتوكل أنشاها من جديد، وأن الترك فتحوا الإسكندرية سنة ٨٦٨ م وأضرموا فيها النار على عهد أحمد ابن طولون. . ولكن أحمد بن طولون لم يفتح مصر وإنَّما أقامه خليفة بغداد حاكما عليها. فلا للترك إذن بهذا الحادث المزعوم).

قال: (وفى سنة ١٨٧٧ ذكر الكونت دي لندبرج أن أحد الضباط الانجليز اتهم نابليون الأول بإحراق مكتبة الإسكندرية).

قال: (وسنلم هنا بالسبب الذي من أجله ظهرت هذه الخرافة في القرن الثالث عشر ولم تظهر قبل ذلك).

(ففي أواخر القرن الثاني عشر رجعت مصر الى حكم خلفاء بغداد. وأبلى صلاح الدين بلاءه في الحروب الصليبية وانتصر على المسيحيين فلقبه الشعب بفاتح مصر، وقرن بين اسمه واسم عمر بن الخطاب، وكان لابن القفطي أب يعجب بصلاح الدين ولاه صلاح الدين قضاء القدس، وعاصر عبد اللطيف البغدادي وهو من المعجبين مثله بصلاح الدين، فتلاقيا في القدس وسمع منه هذه الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد. ومما يروى عن صلاح الدين أنه باع كنوز القصر والمكتبة فبقيت هذه الرواية إلى القرن الثامن عشر يوشيها ما ينسجه الخيال حول الخرافة العمرية. ثم اتخذت صورتها

التاريخية منذ ذلك العهد تعززها خرافات أخرى لحقت بعمر ووافقت معنى قوله ألا كتاب إلا كتاب الله). .

ومن المشارقة الذين تناولوا حكاية المكتبة المؤرخ الكبير جورجي زيدان في الجزء الثالث من كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) حيث قال: إنه كان يميل إلى نَفي الحكاية ثم عدل عن ميله هذا إلى قبولها وأورد من أسباب ذلك (أن حكاية إحراق مكتبة الإسكندرية لم يختلقها أبو الفرج لتعصب دينيٍّ، ولا دسَّها أحد بعدَه، بل هو نقلها عن ابن القفطي وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل، وكان صدرًا محتشمًا جمع من الكتب مالا يوصف وكانوا يحملونها إليه من الآفاق وكانت مكتبته تساوى خمسين ألف دينار. ولم يكن يحب من الدنيا سواها وله حكايات غريبة عن غرامة بالكتب ولم يخلف ولدًا فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب، وله مؤلفات عديدة في التاريخ والنحو واللغة وفى جملتها كتاب أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين في ستة مجلدات وكتاب تراجم الحكماء الذي نحن في صددِهِ، وأنَّ ابن القفطي وعبد اللطيف البغدادي أخذَا عن مصدر ضائع. وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة، فلا بد له من سبب، والغالب أنهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الاسلامى واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه أو لعل لذلك سببًا آخر، وفى كل حال فقد ترجح عندنا رواية أبي الفرج. . . . ".

ونري نحن أن ابن القفطي كان أولى ممن تقدَّموا بالسكوت عن حريق المكتبة بأمر عمر بن الخطاب لو كان الذين تقدموه قد سكتوا عنه لعرفانهم قدر الكتب وغيرتهم على سمعة الخلفاء الراشدين، فان ابن القفطي لا يجهل قدر الكتب ولا يسبقه سابق من المؤرخين المسلمين والمسيحيين الذين شهدوا فتح مصر عن هذه الحكاية إلى أن نجمت بعد بضعة قرون. .

فمن جملة هذا العرض لآراء نخبة من الثقات في هذهِ المسألة يحقُّ لنا أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها، وأنها موضوعة في القرن الذي كتبت فيه ولم تتصل بالأزمنة السابقة له بسند صحيح، وربما كانت مدسوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب الذميم عليه وعلى الإسلام.

وإذا كانت هذه الحكاية من تلفيق النيات السيئة فالمعقول ألا توضع قبل القرن السادس الهجري الذي تسربت فيه إلى الكتب المدونة، وهذا يفسِّر لنا كل غموض يستوقف النظر في الحكاية من جميع أطرافها لأن تلفيق هذه الحكاية يستلزم عناصر شتى لاتجتمع كلها في وقت واحد قبل القرن السادس للهجرة.

فهو يستلزم أن يكون الملفق عليمًا بالأقوال والأحوال التى أثرت عن عمر بن الخطاب وفيها ما يجعل حكاية المكتبة قريبة التصديق مشابهة لما يتوخاه الخليفة في أوامره ونواهيه. . . . ولم تكن هذه الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين أنفسهم عند فتح

الإسكندرية فضلًا عن المسيحيين أو الإسرائيليين، وإنّما عمت واستفاضت بعدما دونت السير وجمعت المتفرقات.

ويستلزم تلفيق الحكاية، للتشهير بالخليفة المسلم، أن يكون الملفق عارفًا بما في هذه التهمة من المعابة، شاعرًا بما فيها من الاعتساف والغرابة، ولم يكن هذا أيضًا مفهومًا في أيام فتح الإسكندرية بين خصوم الإسلام، لأنهم كانوا قد تعودوا إحراق الكتب والتماثيل واعتبار الوثنية واعتبارها رجسًا من عمل الشيطان يستحق نار التاريخ قبل نار الجحيم، وما من عارف بالكتب بينهم إلا كان يسمع بحماسة القياصرة المسيحيين في تدمير التحف الإغريقية ولاسيما ((ثاوديسيس)) الذي أحرق هياكل شتى فيها ولاشك كتب كثيرة من بقايا المكتبة التي عليها الخلاف.

وقد يستلزم تلفيق الحكاية أن تكون مصر وأخبارها موضع اهتمام ومثار قيل وقال، ولم تكن مصر قط أنظار العالم كما كانت في أوقات الصليبية، يوم كانت هي ميدان الفصل ومناط الظفر والهزيمة بين جيوش الدنيا المحشودة فيها أو على أبوابها.

وقد يستلزم كذلك أن يكون العصر عصر حزازة بين الإسلام وخصومه كما كان عصر الحروب الصليبية وما قبله بقليل.

وقد يستلزم مع جميع أولئك أن يشترك في القيل والقال حافظو الكتب الإغريقية في بيزنطية وشواطئ آسيا الغربية وهى البلاد التي كانت موطئ أقدام الجيوش في الكر والفر والقدوم والإياب، ومنها

تدفق حافظو الكتب إلى أوروبا عندما أغار الترك على بيزنطية من تلك الأرجاء.

فتلفيق الحكاية كان عجيبًا أيام فتح الإسكندرية وما تلاها من الأزمنة إلى زمان القفطي والبغدادي وأبى الفرج الملطي، ولهذا لم تظهر حكاية المكتبة في تلك الأيام.

وتلفيقها في عصر الحروب الصليبية غير عجيب لاجتماع الأسباب التي يستلزمها ذلك التلفيق، ولهذا ظهرت فيه وأمدنا ظهورها فيه بالسبب الذي يبطل العجب ويفسر الغوامض التي لا يفسِّرها تعليل معروف غير هذا التعليل. . . .

إلا أننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية، فما هي الوصمة التي تلحقه من هذا الأمر؟.. ولماذا كان يحرم علية أن يحرقها ويجب عليه أن يستبقيها ويفتح أبوبها؟. . ولماذا كان ينبغي أن يكون على يقين أنها شيء مفيد للمسلمين ولغيرهم من الأمم، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها؟. .

أمن النقص في تفكير الإنسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصر حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية؟. . أكانت فائدَةً تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها، إن صح أنهم حفظوها ؟. .

إنَّ أحوال الروم والقبط في ذلك العهد لم يكن فيها دليل واحد على أنهم محتفظون بينهم بمعرفة نفيسة، وان ضياع كتبهم فيه ضياع لذخيرة من ذخائر العالم التي لا يجوز التفريط فيها.

فقد كانوا على شرٍّ حال من الضعف والفساد والجهل والهزيمة والقلق والتهالك على سفساف الأمور. فإذا كان عمر غير مطالب بعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الاطلاع عليها، وإذا كانت أحوال الأمم التي هي أهلها لا تدلُّ على قيمتها بل تسوغ الاعتقاد بخلوها من كل قيمة، فأين هو تفكيره إن صح انه فكر على ذلك المنوال؟. .

إنما يعيب الإنسان أن يكون عدوًا للمعرفة على إطلاقها، ولم يكن عمر عدوًا للمعرفة ولا معرضًا عنها، بل كان مشغوفًا بها حيث رآها دينية كانت أو أدبية، ومن قومه أتت أو من غير قومه. . .

فكان يستشير الغرباء في تدوين الدواوين ومنافع الصناعة ولا ينهى عن علم شيء إلا أن تكون فيه فتنة أو ضلال.

وكان ولا ريب يؤثر للمسلمين أن يقبلوا على دراسة القرآن ويقدموا فهمه على فهم كل كتاب، وهذا واجبه الأول الذي لا مراء فيه، وما من أحد هو مطالب بهذا الواجب قبل أن يطالب به عمر على التخصيص، لأنه الخليفة الذي في عهده انتشر بين أقطار المشرق وخيف عليهم أشدُّ الخوف أن ينحلَّ العقد الذي جمعهم وبثَّ فيهم الهمة والبأس وسودهم على العالمين.

وفى الأخبار التي نقلت بهذا الصدد، أن رجلًا أنبأه أنهم لما فتحوا المدائن أصاب كتابًا فيه كلام معجب. فسأله: أمن كتاب الله؟. . فقال: لا. . فدعا بالدرة فجعل يضربه بها وهو يقرأ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ ثمَّ قال : (إنما أهلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسَا وذهب ما فيهما من العلم). رويت هذه الرواية عن عمر بن ميمون عن أبيه، وليس فيها ما يأباه العقل ولو حكمنا على عمر بحكم الدنيا وحكم التجربة الواقعية وتركنا حكم الدين والإيمان إلى حين. .

فبالتجربة الواقعية أيقن عمر أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلمات إلى النور وانتصروا على من حاربوه وعندهم كل كتاب. .

وما فرغ المسلمون بعد من قراءة القرآن ولا انقضت على تداوله بينهم سنوات فكيف يرضى الخليفة الذي يهمُّه أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه إلى كتب لا يؤمن بما فيها؟. . .

وكيف يكون الحال إذا تفرقوا شذَرَ مذَر ولهم فكل بلد قراءة غير هذا الكتاب الذي لم يفرغوا منه ولم يستوعبوا كلَّ ما فيه؟. . أمن عداوة المعرفة هذا أومن إيثارِ المعرفة التي تتقدَّم على غيرها؟. .

وإذا لم تتقدَّم هذه المعرفة على غيرها في السنوات الأولى من تداول القرآن الكريم فمتى تتقدَّم؟.. ومتى يعطى القرآن حقه من الفقه الوعي والإقبال؟ وأين هي الغنيمة الروحية التي تعدل في كتاب من الكتب بعض ما غنمه المسلمون بوحي القرآن في صدر الإسلام ؟. .

obeikandl.com

فعلى أي فرض من الفروض، لم يكن عمر في تصرف عمر ما يأباه العقل الذي ينظر الحقائق المشهودة والآثار الواقعة، ويجوز أنه أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية على أبعد احتمال، ولكن الذي لا يجوز لمنصف أن يفهم من ذلك أنه عدو الثقافة وهو الأديب الفقيه الخطيب، وهو قد وازن بين معرفة ظاهرة النفع، ومعرفة مجهولة ظواهرها كلها تغرى باتهامها. ولا لوم عليه أن يتهمها وهى لم تنفع أهلها يوم رآهم يخبطون في الضلالة والهزيمة، ولا يقال عن عقل يفكر هذا التفكير أنه لم يفكر على هدى مستقيم.

obeikandl.com